

رأيت في أفغانستان

بقلم عبد الحميد الكاتب

« كاتب هذا المقال هو الأستاذ عبد الحميد عبد الغني ، وهو من رجال السلك السياسي المصري ، وقد اقتضاه عمله أن يقضي في أفغانستان فترة ما ، أتيح له فيها أن يعرفها ، وأن يكتب عنها ، ونحن ننشر في هذا الكتيب مقاله هذا كما أنشأه ، ليكون تعبيراً صحيحاً عن إحساس كاتبه بما رأى وما عرف من شئون تلك البلاد »

كابل :

ما أحسب أن هناك بلداً جوهره خير من مظهره ، مثل أفغانستان ! فكل بلد يعني بأن يظهر لمن يعبر به أجمل ما فيه ، ويخفي أقبح ما فيه . . . إلا هذه البلاد . . . فليس يعنيا أن يرضى عنها الأجنبي الذي يمر بها مرأ عاجلاً ، وليس يعنيا أن يطلق لسانه فيها بما يشاء ، وكأنها الرجل الواصل من نفسه ، المطمئن إلى قوته ، فلا يرى بأساً في أن يبدو أمام الناس في ثوب مهلهل أو مرتوق ! انظر إلى بيوتها مثلاً . . . فعندما دخلت مدينة كابل أول مرة ، وتجولت في أنحائها قليلاً ، وجدت أكثر طرقها ضيقة ، متربة ، تتعالى فيها الأحجار ، وتتناثر في جوها الأتربة ، وتمتد على جانبيها

جدران واطئة من اللبن ، فيها فتحات ضيقة نصبت عليها أبواب خشبية صغيرة !

فلم يتخالنى الشك فى أن هذه الجدران لا يمكن أن تخفى وراءها إلا أكواخاً حقيرة من اللبن . . . فرشت أرضها بالحصير الخشن . . . ونام فيها الناس على مصاطب من الطوب ، واستضاءوا بذبالة توقد بالزيت أو الجاز . . . وشربوا واستحموا بماء الآبار يغترفونه بكوز من الصفيح ؛

هذا هو ما تصوره أول ما دخلت المدينة وجست خلالها . . . ولكنى ما كدت أدخل باباً من هذه الأبواب الخشبية الصغيرة ، ذات الأقفال الحديدية الصدئة ، حتى ألفت نفسى وسط بستان ناظر من الزهر والثمر . . . يكتنف بيتاً بنى على أحدث طراز ، وأثث بأجمل أثاث . . . قد انتشرت فيه الأرائك من المخمل والجلد ، وبسطت فيه السجاجيد الوثيرة التى افتنوا فى نسجها وزخرفتها ، ونسقت فيه المائدة أجمل تنسيق ، وصفت عليها أدوات السرفيس كما تصف فى أحسن الفنادق . . . وأضىء البيت بالكهرباء . . . ومرت فيه الأنايب تحمل الماء العذب من ضاحية « پغمان » النائية !

وليست بيوت كابل جميعاً من هذا الطراز ، ولكن هذه بيوت أغنيائهم الموسرين . . . أما بيوت الطبقة الوسطى من أهل البلاد ، الذين لا يستريحون إلى الجلوس على المقاعد ، والأكل على الموائد ،

فإنك تراهم بها يفترون أرضاً كسيت بالسجاد الجميل والوسائد الأنيفة، وترى فيها كل أسباب الراحة ميسورة موفورة .

مظهر الأفغانى لا يدل على جوهره

والأفغانى مثل بيته : مظهره لا يدل على جوهره ، وباطنه خير من ظاهره !

إنه يبدو لك أول الأمر رجلاً جافاً . جامداً كأنه قد من جبال بلاده السماء . . . وتراه ينظر إليك ، وإلى كل أجنبي عن بلاده ، نظرة خوف وتوجس ، ولا يكاد يسير الأجنبي في أفغانستان إلا وأنظار الناس متشوفة إليه في دهشة وتساؤل ، ملقاة عليه في تعجب واستغراب ، ولا يكاد يدخل متجرّاً إلا تجمع أفراد من الناس أمام الباب ينظرون إليه ويتساءلون : ماذا يشتري ؟ وكيف يتكلم ؟ وكم يدفع ؟

والأفغانى غريب في هذا . . . فإن دهشته من رؤية الأجنبي تشبه أحياناً نفسه ، فتراه واقفاً أمام هذا الأجنبي وجهاً لوجه ، محملاً فيه بعينين واسعتين ، كأن هذا الأجنبي شيء يستحق التطلع والمشاهدة . . . وقد يلتفت الأفغانى إلى من حوله من المتفرجين ويأخذون في الحديث عن هذا الأجنبي ، كأنهم اكتشفوا أنه خلق آخر ، يختلف عنهم كل الاختلاف !

ولا ترجع دهشة الأفغانى من رؤية الأجنبي إلى قلة الأجانب
 فى بلادهم ، فى كابل مئات ، وفى هرات وقندهار وجلال آباد
 عشرات من الأمريكين والأمريكيات ، والأوربيين والأوربيات ،
 يعملون مهندسين لرصف الطرق وإقامة خزانات المياه ، أو مدرسين
 وأطباء فى كليات الجامعة الأربع ، أو وكلاء للمؤسسات التجارية
 الأجنبية . . . وذلك فضلا عن رجال السفارات والمفوضيات هناك ،
 فى كابل اليوم خمس عشرة بعثة دبلوماسية ، منها أربع عربيات ، وهى
 المصرية والسعودية والعراقية والأردنية . . . والواقع أن حكومة أفغانستان
 تبذل جهداً كبيراً ، ومالا جزيلا فى سبيل استقدام هؤلاء الخبراء
 الأجانب ليعملوا فى تمييز البلاد وترقيتها .

ولمّا ترجع دهشة الأفغانى من رؤية الأجنبي ، إلى أن بلاده
 قد غزاها الأجانب مراراً طوال التاريخ ، فصار يرتاب فى الأجنبي*
 ويتوجس منه خيفة ، وأخذ ينظر إليه نظرة الشك ، والحذر والإشفاق ،
 أما إذا عرفه ، واطمأن إليه ، ووثق منه ، تبدى هذا الأفغانى على
 حقيقته . . . رجلا ما يزال على فطرته الأولى ، لم تنل منه المدنية
 ولم تفسده الحضارة ، بل ظل كما كان الناس قديماً . . . كريماً ،
 وفياً ، صريحاً ، شجاعاً ، مؤمناً ، مخلصاً ، محباً للحرية ، متأهبا
 لبذل دمه فى سبيلها . . . وعلى الحملة ما يزال جوهر الأفغانى سليماً ،
 لم تفسده هذه الحياة الحضارية التى تضطر الإنسان المتمدين إلى

كثير من أساليب المكر الذى يبلغ حد الخبث ، والحذر الذى ينحدر إلى الجبن ، والمجاملة التى تؤدى بالمرء إلى الاستكانة .

موقع أفغانستان يجعلها هدفاً للفاتحين

وقد غزيت أفغانستان مراراً منذ بداية التاريخ برغم وعورة جبالها ، لا طمعاً فى أرضها ، ولا سعيًا وراء خيرها ، بل لأنها تحتل مكاناً جغرافياً عجيبيًا يجعلها هدفاً للغزاة والفاتحين ؛ فكل فاتح طمعت نفسه إلى امتلاك الهند ، تلك البلاد الفسيحة الحصينة السخية ، فكر أولاً فى أن يضع يده على مفتاح بابها ، أى على أفغانستان ، التى لا منفذ للهند إلا عن طريقها .

فالإسكندر المقدونى أراد أن يسير إلى الهند ، فسار أولاً إلى أفغانستان ، واخترق على ظهور الجياد جبالها الوعرة ، وصخورها الصماء ، التى تلتهب بالحرارة صيفاً وتكتسى بالثلوج شتاء . . . ثم نفذ منها إلى سهول الهند الحصينة ففتحها . . . ثم اقتسم خلفاؤه هذه المملكة الواسعة التى شادها ، فأقام أحدهم فى أفغانستان دولة يونانية عمرت طويلاً ، وما زالت آثارها باقية فى متاحف أفغانستان وحفرياتها . وغزاها العرب فى صدر الإسلام ، وحولوا أهلها من عبادة أصنام بوذا ونيران زرادشت ، إلى عبادة الله الواحد الأحد . . . فصاروا أكثر الناس تعصباً للإسلام ، ولا يوجد بين الأفغان جميعاً - وعددهم

اثنا عشر مليون نسمة - إلا بضعة آلاف من الهندوس واليهود يعملون في التجارة . . . أما الباقون فمسلمون ، مسلمون متدينون إلى حد كبير . . . ولا يكاد الأفغانى الذى يعيش بعيداً عن المدن يجاوز سن الحلم ، حتى تتدلى على وجهه لحية طويلة ، وتتدلى بين أصابعه مسبحة طويلة !

وأكثر أفغانستان هو ما كان يعرف باسم خراسان التى قامت فيها حضارة إسلامية عظيمة ، والتى أنجبت أبا مسلم الخراسانى . وشهدت أفغانستان الطاغية جنكيز خان وهو يهب من أواسط آسيا فيجتاح سهولها وجبالها اجتياح العاصفة الهوجاء . . . ومرت بها خيوله فلم تترك بها أخضر ولا يابساً ولم ترحم فيها أرملة ولا عانساً . وعند ما هم المسلمون بفتح الهند وامتلاكها كانت أرض أفغانستان مسرحاً للجيوش وميداناً للقتال ، فمنها انبعث السلطان محمود الغزنوى إلى الهند ففتح مناطقها الشمالية ونشر فيها الإسلام . وما تزال أطلال عاصمته ، مدينة غزنى ، تروى بأبراجها وأسوارها ، وبقبره وقبر أبيه ، « السلطان سبكتكين » قصة هذا المجد الذى عفى عليه الدهر . . . و « بابر » هذا الفاتح المغولى الجبار الذى أقام دولة المسلمين في الهند ، كرت وفرت فرسانه وأفياله مراراً بين الهند وأفغانستان . . . ولكنه اختار مقره الأخير في كابل ، فأوصى بأن يدفن فيها وسط تلك الحديقة الجميلة المسماة باسم حديقة بابر .

الأفغان بين الإنجليز والروس

ونشبت الحروب في التاريخ الحديث مراراً بين الأفغان والروس ،
وبين الأفغان والإنجليز .

أما الروس فقد اقتطعوا من أفغانستان بعضاً من أرضها ، وتقع
اليوم داخل حدود روسيا مدينة بخارى وسمرقند وسواهما من البلاد
الإسلامية التليدة التي أنجبت كثيراً من علماء الإسلام ومفكريه ،
وحسبنا أن نذكر منهم الإمام البخارى والعلامة البيروني ، وأبو مسلم
الخراساني ، وابن سينا .

مفتاح الهند

أما الإنجليز فقد تيسنوا منذ البداية أن أفغانستان هي مفتاح
الهند ، إن لم يسيطروا عليها لم يأمنوا على أنفسهم في الهند . . .
فقامت الحروب بينهم وبين الأفغان مراراً ، وتشابكت جنودهما في
هذه المسارب الجبلية الوعرة الرهيبة . . . فانتهت الحروب الثلاث
بينهما بالهزائم المتوالية ، منيت بها الجيوش الإنجليزية التي لا قبل لها
بقتال القبائل الأفغانية المحاربة ، وما يزال قوس النصر القائم في ضاحية
پغمان شاهداً على آخر هزيمة أنزلها الأفغان بالإنجليز .

وهذه الغزوات المدمرة التي تتابعت على أفغانستان على مر التاريخ ،
هي التي ولدت في أبنائها خلق الحذر من الأجنبي ، والشك في نواياه ،

فلا يسير إلا وأنظار الناس ترمقه من كل جانب ! . . . وكثيراً ما رأيت الفتيات الأمريكيات يطلقن ضحككتهن المرححة العالقة . عندما يلتف حولهن جمع من الأفغان . فيتفرسون فى وجوههن ولباسهن . ويتهايمسون فيما بينهم برأيهن فى هؤلاء الأجنبيات السافرات ، الضاحكات !

وقد أكبرت شيئاً فى الأفغان . هو أنهم لا ينظرون إلى الأجانب على أنهم أفضل منهم وأرقى . كما هو شأن كثير من الشعوب التى غزيت كثيراً واستغلت طويلاً فغدت تحسب كل أجنبي خيراً منها دماً وخلقاً وذكاء . . . بل إن الأفغانى يعتقد فى قرارة نفسه اعتقاداً يحسبه بعض الناس غفلة وغروراً . أنه من أرقى شعوب العالم جميعاً ، ومن أقواها جسمياً ، وأصفاها طبعاً ، وأذكاهما فؤاداً . . . ويرى أن تأخره فى مظاهر الحضارة لا يرجع إلى نقص فى طبيعته ، بل إلى الوضع الجغرافى لبلاده مما عزلها عن العالم وراء جبالها الشماء ، ومما عرضها لكثير من الغزوات الأجنبية والثورات الداخلية .

أنفة الأفغانى

ولعل الحادثة التالية تدل على مدى اعتداد الأفغانى بنفسه اعتداداً يصل إلى حد الكبرياء . وإعجابه ببلده إعجاباً يبلغ مبلغ التقديس ؛ فالقانون الأفغانى هو الشريعة الإسلامية التى تقول إن من قتل يقتل ، ولكن من عفا وأصلح فأجره على الله . فالقاتل فى

أفغانستان يحكم عليه بالإعدام . ثم يترك الأمر لأهل القتل ،
 فينفذون فيه حكم الإعدام إن شاءوا ، أو يعفون عنه إن أرادوا ؛ لقاء
 دية يأخذونها ، أو احتساباً لوجه الله . وقد حدث ذات يوم أن إيطالياً
 قتل أفغانياً ، وأقر بجرمه ، وحكم عليه بالإعدام ، وسلم القاتل لوالد
 القتيل ليزهق روحه بنفسه ، وجاء الأب ، واجتمع الأهل والناس ؛
 وألقى الإيطالي على الأرض ، ومد عنقه تأهباً للذبح ، وأخذ الرجل السكين
 وشحذه ، وشمر عن ساعده ، وشرع يأخذ بدم ابنه . . . ومر بالسكين
 على عنق الإيطالي هونا . . ثم التفت إلى من حوله وقال : ولكنى إن
 ذبحت أسلت دمه على أرض بلادى . . وما أحب أن ألوث هذه
 الأرض الطاهرة بدم هذا الكافر اللعين !

ولكن الحكومة نابت عن أهل القتل في أخذ الثأر فأعدمت
 القاتل .

ومن علامات أنفة الأفغانى وشمه أنك قلما ترى شحاذاً في
 هذه البلاد الفقيرة الجرداء . . وكأنه يؤثر أن يموت جوعاً على أن
 يمد يده للناس متسولاً متوسلاً . . بينما ترى في الهند ؛ حيث الأرض
 الخصبه والخير الوفور ؛ أسراب الشحاذين ومواكبهم تزحم الطرق
 وتطارد المارة !

رياضة رهيبه

والأفغانى من أقوى الناس جسماً وأشجعهم قلباً ؛ ولهذا فإن

رياضتهم المحبوبة هي سباق « البوزكاشى » الرهيب . . إذ يجتمع لفيف كبير من فرسانهم على ظهور جيادهم الأصيلة ؛ ويأتون بخروف فيذبحونه ويضعونه فى حفرة وسط حلقة السباق ؛ ثم يندفع الفرسان على صهوات الجياد حول هذه الحفرة ليختطف كل منهم الخروف . . ثم يتدافعون من حول هذا الذى اختطفه ؛ وكل منهم ممسك بزمام فرسه بيد ؛ محاولاً أخذ الخروف بيده الأخرى . . وهى رياضة ممتعة حقاً ؛ تسمع فيها الجياد تصهل ، والفرسان يصيحون ، والغبار يملأ الجو ؛ والناس من حولهم يتطلعون فى لفة إلى من يفوز بالخروف أخيراً . . وكثيراً ما يقع فى هذه الرياضة بعض القتلى ؛ ومع هذا فهى رياضتهم المحبوبة !

والأفغانى الأصيل يقول لك بزهو : نحن أبناء الجنس الآرى ، هذا الجنس الذى زعم هتلر ؛ وزعم من قبله هوستن تشيبرلين وروزنبرج ، أنه أرقى أجناس العالم خلقاً ؛ وأسواها جسماً ؛ وألمعها ذكاء ؛ وأقدرها على الابتكار .

والواقع أن الافغانى أقرب صلة إلى الأصل الآرى من الألمانى . . والملامح الآرية أكثر وضوحاً فيه منها فى أى شخص آخر ؛ فهو على الجملة أبيض البشرة ؛ مستطيل الرأس ؛ سبط الشعر ؛ دقيق الأنف ؛ مطابق الشفتين ؛ طويل القامة نحيفها . ذلك أن منشأ الجنس الآرى هو الإقليم الشمالى من الهند ؛ ومنه انبعث مهاجراً صوب الغرب ؛ ماراً



سبانی ۽ البوزکاش، ریاضة أفغانستان الجبویة